**أنا أحب ... فأنا ، إذن ، موجودة**

## انا أنحب . . . فأنا، إذن، موجودة

**بن حديد فايزة**
**استاذة مكلفة بالدروس**
**معهد علم النفس وعلوم التربية**

إنطلاقا من تجربة شخصية : وضعيتنا كبنت وفتاة، ثم كزوجة وأم، ومهنية : مزاولتنا في مصلحة متخصصة في الامراض النسائية، وبالأخص بعد ملاحظتنا لبعض الافعال السلوكية كالتلهف (نفاذ الصبر)، العدوانية، القصور الذاتي، الحزن، اللامبالاة، الفرح . . . وما إلى ذلك من ابسط التظاهرات منها الى اخطر الحوادث العرضية فيها عند المرأة الحامل (1) النفساء(2) وخاصة وأن هذه الافعال لم تتبين بعلاقة مع بعض العناصر الموضوعية مثل السن أو عدد الاولاد او المستوى الاجتماعي الثقافي والاجتماعي الاقتصادي او حتى البنية التحية او البطع، فارتأينا انه من المثير للاهتمام ان نعود الى وراء اي الى أصل هذه الأرتكاسات، مهما كان، ونطرح المشكل تحت لفظة «الرغبة في الطفل» ومن الممكن ان يظن البعض ان عبارة «الرغبة في الانجاب » قد تكون افضل لغويا ولكن رغم عنوان هذا المقال، نتمسك فيما يخص التعبير بالصيغة الاولى وخاصة وانها عملية وأن بينهما فروقا ليس فقط على مستوى المعاش وإنما ايضا كآلية سيكولوجية وحتى على مستويات اخرى سنراها فيما بعد .

إن إحدى مبادىء علم النفس العيادي هو ان يكون فهيما، أساسا. وهكذا، يحاول المتخصص النفساني ان يصل الى « معاش » المعني بالامر وان يدرك معنى تصرفاته . ولكن لا يمكنه بلوغ مراده إلا بفضل مسعى ظواهري وبغض النظر عن أي معرفة نظرية او حتى تجربية، لا شخصية ولا عيادية إضافة الى بذل كل طاقتهة في التصور .

ولكن إذا كان غرض هذه الدراسة إيضاح سيرورة بعض الآليات السيكولوجية الاساسية وتطوير المعارف في هذا المجال ، في نفس الوقت ، لم يكن لها اي معنى او فائدة إلا إذا استطاعت تقديم عناصر أجوبة الى المشاكل التي أثارتها وبالتالي، كان عليها ان تستجيب لطلب شامل وتتطابق مع «آونة الحاجة الاجتماعية » وبناء على هذا، تؤول الى نتائج فعالة وملموسة خارج البحث نفسه، اي ان تكون مسجلة في ذرائعية(3)

ولهذا السبب كان بحثنا معنونا ب :
مساهمة في سياسة تباعد الولادات عبر دراسة موضوع :
«الرغبة فـي الطفل»

## 1 : كيف طرح المشكل الى حد الآن ؟

لقـد اجـريت، في بلادنـا، بعض الـدراسـات الاحصائية والجوائعية حول مشاكل تباعد الـولادات ، وسـائـل منـع الحمـل ومحاولاتها الفاشلة، الا ـ معاوضات النفسية والسيكياترية والاخطار الاخرى لتعدد المواليد، كما كانت وضعية المرأة موضوع بحوث طبية (طب الامراض النسائية، طب الاجتماع والسيكياترية)، إجتماعية ـ مهنية وسياسية ـ إقتصادية .

أما من شأن الانجاب، لقد طرح المشكل، في أغلب الأحيان، إنطلاقا من العلاقة بين النمو الديموغرافي والتنمية الاقتصادية حتى في المجال القانوني وهكذا، نقرأ في المادة(5) من دستور 1976 بأنه «يجب على تباعد الولادات أن يتمفصل حول التنمية الاقتصادية والاجتماعية والدفع بالرقي العائلي قدما » اي رغد العيش العائلي .

وهل للفرد، هنا، مكانة صغيرة ؟
وينتظر من سياسة الصحة ـ بفضل تأسيس المراكز المسماة بمراكز حماية الامومة والطفولة(5) وإدماج تدريجي (6) لنشاط تباعد الولادات فيها ـ ان تخفف من المفعول المشترك لسوء التغذية والعدوى، والخصوبة غير المنتظمة بالاضافة الى ظروف اجتماعية اقتصادية غير مرضية ولكن رغم أسس هذه السياسـة الدالة على طموح كبير، والجهود المبذولة وخاصة المادية والميزانية، في هذا الميدان كيف يمكننا تفسير الوضعية الديموغرافية الحالية؟

## 2 :— كيف أردنا طرح المشكل؟

إن لكل حمل ـ والمتمفصل حول مدرج سيكو ـ فيزيولوجي ـ غاية وهي وضع صغير .
ومن المؤكد أن هذا القول سيدل، بالنسبة للبعض على تحصيل حاصل أو تعريف الشيء بنفسه ولكن تم هذا، عن قصد، لأن الامر نفسه، ليس بهذه البساطة ولا يتقلص الحبل على الولادة كآشتغال آلة . ولا نشير هنا لا للحمل المرغوب فيه ـ أم لا ـ ولا حتى للطفل المرغوب فيه ـ ام لا ـ وإنما للرغبة التحتية ونوعيتها، حلويها ومحتواها .
يستحيل حاليا ان نتكلم عن الطفل، في الاوساط المتخصصة [النفسانية ، الطبية، التربوية] او العائلية، دون ان يحثنا هذا الى التساؤل التالي : هل كان الطفل مرغوبا فيه ام لا ؟
ومن وجهة نظر عيادية، لم يكن الموضوع بقدر الوضوح الذي يدعى به ، عامة وكثيرا ما تقول لنا، البعض من متعددات المواليد الكبيرة بأنهن لم تردن هذا العدد الهائل من الاطفال (حتى ستة عشر) وانهن يفضلن كن تقليصه لو كان هذا في قدرتهن، ولكننا لم نلاحظ اية مبادرة رغم تطلعهن

ومعرفتهن فيما يخص الوسائل الموفرة وإمكانياتهن الحقيقية . وفي نفس المنوال ، هناك امهات لهن طفلان او ثلاثة اطفال يدعين بأنهن كن ينوين إكثار عدد اولادهن ومع هذا فانهن اكتفين بهذا الرقم ، رغم إمكانياتهن المادية والمعنوية

ومما لا شك فيه هو ان هذه الاقوال ، صادقة ولكن هل تدل على الحقيقة ؟ وكأن السؤال مطروح بعكس الصواب ويترجح انه يجب علينا أن نحدد بدقة المصطلح المنشود اي الرغبة التي نتكلم عنها

ومن الممكن أيضا ، أن بعض الولادات « غير المقصودة» الطارئة (7) تتطابق بشكل متناقض مع رغبة صادقة ولحد ذلك الوقت ، ـ اي الحبل ـ لم تسمح بعض الحوافز الموضوعية بأخذ قرار لمشروع حمل او حتى التفكير فيه ، ومنها ، المتطلبات الخارجية كعمل الام او دراستها ، ظروف السكن ، الامكانيات المادية او سن الاب او الام وما إلى ذلك . . . وفي بعض الاحيان ايضا ، البعض من الدوافع او المؤثرات النفسية ونذكر منها على سبيل المثال : التجاذب الوجداني اللاشعوري او على الأقل ، غير المعبر عنه او غير المشعور به بصفة جلية وباتالي ، غالبا ما يكون هذا الاحتمال غير واردا تماما ولكن عند حدوثه ، تشعر المرأة أو الزوجان معا بارتياح و سعادة « لاجبارهما» هذا ، ويرحبان بالطفل كل الترحيب

وعكس هذا ، تتبين لنا البعض من حالات الحمل كأنها منتظرة ومرغوب فيها ـ ويكون الصغير ، عند وصوله ، محميا ومحبوبا بإفراط ، بصفة ـ شبه مرضية ـ ولكنها مرفوضة ذهنيا وتقبل فقط إما لأن الكائن البشرى ـ الرجل أو المرأة ـ كائن إجتماعي ، يجد نفسه أمام الضرورة الملحة للامتثال مع الصورة التي يرسمها له المجتمع وإما لأنها تتطابق مع شيء آخر أكثر عمقا .

ومن الممكن ان تفسَّر تلك الاحاسيس والعناية المفرطة (والشاذة في نفس الوقت) إزاء الطفل بشعور بالاثم لا ـ شعوري ناتج عن رفض ، هو الآخر لا ـ شعوري ، مما يدل في الحقيقة ، على محاولة معاوضة و نوع من التكفير .

وأخيرا ، لم تكن «الرغبة في الطفل» رغبة شخص واحد ، وبهذه الصفة ، لها مدلول متنوع ومتغير : الاباء كأفراد وكأزواج ، في أغلب الأحيان الجدود وحتى الاخوة لهم كلمتهم ورغبتهم الذاتية إزاء الصغير الذي سيولد « أريد أخا . . . أو أختا . . . أريد حفيدا . . . أو حفيدة . . . » .

من جهة أخرى ، لم تكن حرية الاختيار في إنجاب طفل أم لا ، سهلة التحمل : فالرغبة في الطفل لم تكن بديهية وليست بشيء في ذاته ولذاته ، كما هو الحال فيما يخص الود والارتباط او الاحساس الأمومي .

وهذا ما يوضح التنوع الملحوظ في ردود الفعل إثر التجربة الاولى للأمومة وتجديدها عند كل ولادة لاحقة بها . بل يعكس بالتأكيد شيئا آخر او خاصة وأن الاحساس الأمومي ليس بفطري ولم يتركب إلا مع مرور الزمن .

يحدث أن توجه النساء ـ أم لا ـ نحو الأمومة ، دون أن تؤخذ رغبتهن بعين الاعتبار ، وحسب السياق ، فإما تتكفل بها الجماعة وتزيدها قيمة وإما تحاربها وتستنكرها أو يقضى عليها نهائيا .

فهكـذا، في الصـين ، يلعب مليون من « الأطبـاء الحفـاة » دورا أسـاسيا في تنـظيم التكاثر الديمغرافي، يوزعون الوسائل «المنعحملية» مجانيا، وكذلك التعقير(8) اذا طلبه البعض. ولقد اسس جهاز مكافاءات وعقوبات لتعزيز هذا المسعى. و وصلت الطرق المستعملة بالالتزام بهذه السياسة ـ وخاصة العقوبات على مستوى الضمان الاجتماعي والترقية المهنية ـ الى حد جر بتطور بعض التصرفات الخطيرة كقتل الاطفال للاحتفاظ بالحق في الابوة الوحيدة.

في البلدان الغـربية، بالعكس، أصبحت «الأمهـاد الخـالية» تثـير القلق والحـيرة، ويتكلم الأخصـائيون عن «الزمن المظلم لنقصان المواليد» ويتوسمون زوال بعض البلدان من الخريطة الاوربية والعالمية، لذلك السبب، كالنمسا، مثلا.

وإذا أردنا إعطاء فكرة عن الفرق الموجود بين تلك وبلدان مايسمى بالعالم الثالث، نذكر فقط، للمقارنة هذه الارقام في مجال مضاعفة السكان : إنها تتم في الجزائر، كل إثنتين وعشرين سنة بينما لا يحدث ذاك في سويسرة إلا كل سبعة قرون.

. ولم تكن الوضعية الاولى ولا الثانية، مثالية، فما هو الحال ؟ .

أقرب منا، إنه لمن الاعتيادي أن نشاهد بعض المسؤولين من مديري المؤسسات العمومية أو الخاصة يرفضون تماما أن تكون إحدى موظفاتهم حاملا وغالبا ما يهاجمونها ولو كان على مستوى الملامة الشفهية، مع أنهم يرون في توسيع عائلتهم كل سنة وطوال السنين، ضرورة حيوية، حتى ولو كانت الزوجة موظفة، هي الاخرى، في مكان آخر. وفي نفس المنوال، قد تتجنب عمليات التوظيف، إختيار الملتمسات (طالبات العمل). وعامة، قد يبعد الحمل ـ والأطفال ـ المرأة من الترقية ومناصب المسؤولية، مهما كانت درجة كفاءتها، بما ان الكفاءة والمسؤولية والترقية الوحيدة والمعترف لها بها، من طرف الغير والمجتمع، هي إنجاب الاطفال والكثير منهم وإذ كانوا ذكورا، فهذا أفضل ويجب ان يكون همها الوحيد، الاعتناء بهم ليلا، نهارا.

وبشكل مواز، إن المرأة التي تتكفل بخصوبتها، ولم تنجب الا القليل من الاطفال أو لم تلد مطلقا، قد يساء بها ظنا، من طرف الجماعة التي لا تفهم هذا الموقف، بل هذا المنطق، ولم يفصح عنها.

وتمثل مصلحة الامراض النسائية مكانا آخر للضغط بحيث ان تصرف الرغبة، فيها، عن نيتها الاصلية ثم تنبثق ثانية محولة «على» الأخرين وتأخذ كلمة التحويل معناها التحليلي وخاصة التحويل المضاد إذ تصبح الحالة، هنا، موضوع او مجال تحقيق الرغبة الا ـ شعورية لدى الطبيب ـ او الطبيبة ـ وخاصة وان الانبثاق من المعرفة الى السلطة من اسهل مايكون ، إذ لا يتصدى المعالج لموضوع الوسائل المنعحملية إلا اذا وجه له الطلب وهذا نادر جدا، ولم يحدث الا من طرف بعض المحظوظات، اللواتي لم يكن في الحقيقة، معنيات بما انهن على دراية بها.

وفي العديد من الحالات، يكون ضغط الوسط العائلي شديدا ويحل تساؤل «الم تنجبي بعد؟» محل «الم تتزوجي بعد؟»، ولم ينته الامر الى ذلك الحد، إذ تسأل المرأة ايضا لما تكتفي بعددها من الاطفال ولا بأس ان نذكر مثل اولادنا (اربعة) حيث مازلنا الى حد الآن نسمع من طرف الكثير «خمسي على اولادك» ونرى هنا بأن الذريعة هي الامة او حماية اولادنا ـ الذين سيصبحون خمس (في عين الشيطان) ـ من العين الشريرة وهذا ما يظهر إمكان المحيط في تعدد الحجج لتحقيق غياته التكاثرية.

وينتج عن هذا التأثير الاجتماعي ان «الرغبة في الطفل» تكون في المرحلة الاولى «رغبة في الحمل» كدليل خصوبي وبشكل مواز دليل رجولي وباتالي سيثبت الاشتغال الجيد للآلتين (الاعضاء التناسلية) وفي مرحلة ثانية «رغبة في الأمومة» وفي تعددها وهذا يمثل الوسيلة الفريدة من نوعها للترسيم في وظيفة الزوجة والحصول، فيما بعد، على وضع إنسانة راشدة.

وكان من الممكن ان نأمل بأن الوسائل المنعحملية، ما أتت به وما مثلته على مستويات عدة، قد وضح الوضعية، في الواقع، إن الملاحظة تسمح لنا بالتأكد من انها أثارت مشاكل أكثر من التي استطاعت حلها. إن الاسباب المذكورة لتبرير رفضها او فشل استعمالها، ترجع في اغلبها الى دوافع لا ـ شعورية، وإذا سمحت بالتعبير عن الرغبة المترددة، فانها لم تعط، مهما كان العارض، بواعث التجاذب الملحوظ وهنا ايضا تصادفنا صعوبات في تحمل الاختيار.

وإذا سجلنا الموضوع فيما نستطيع تسميته بمدرجه الطبيعي أي: زواج، رغبة في الطفل، إنجاب وحمل، محبل (9) نفاس وميلاد صغير والحصول على حالة الأمومة، من الممكن ان يرجعنا الى واقع ذي مميزات معينة، كما اننا نشعر بأن هذه القضية موجبة ولا مجال للمنازعة فيها، ولكن كيف يمكن التأمل فيها؟.

يظهر التمهيد صعبا جدا لأنه يدور حول عناصر ذاتية، اي معاش تلك المرأة و وضعيتها وامتيازاتها ومن هنا، فان السؤال الذي يستحق أن يثار هو أن نعرف الى اي نطاق ممكن، ستقبل إهابة نفسها وهل سيتم عن طيب خاطرها وخاصة وأن هذه العناصر تمس أعمق ما في قرارتها: ميادين محجوزة، ممنوعة الاقتراب، مواضيع محرمة؟

— وما تعني، بالنسبة لها، الجنسية والخصوبة، الانجاب والامومة او تعدد المواليد؟.

— وكيف يمكنتها أن لا تعيش تدخلنا كراشن ؟.

وإذا ادركنا بأنه غالبا ما تكون هذه المفاهيم مترادفة مع القضاء والقدر او الحتمية الطبيعية فانها تشترك المعنى، ايضا وفي أغلب الاحيان مع المنفعة والضمان والطمأنينة ولاسيما الهوية واذا قال اتباع المنطق الديكارتي «أنا أفكر. . . فأنا، إذن، موجود»، إن «أم فلان»، اسما ولقبا، ترتاح فقط لـ «أنا أنجب. . . فأنا، إذن، موجودة».

وهذه الصيغة جد مسهبة، فوقيا وتحتيا.

حسب رأي فرويد، لم تكن الرغبة، اساسا، إلا ظاهرة مرتبطة مباشرة «ببقايا ذاكرية»(10)، لا تنفصم عراها. اي انها تتخذ أصلها من التجارب الاولى للرضيع وليست الرغبة موثقة بموضوع وإنما بهُوام

اما بالنسبة لف . دولتو، فالرغبة، قبل كل شيء، واقع لا ـ شعوري، «ما نريده دون ان نعلم، ما يحثنا الى البحث والى التقدم مهما كلف الأمر. . . الى المراد اكثر فأكثر».

ويتبين إلمام «الرغبة في الطفل» كمشكال تكون فيه الرغبة، النقطة المركزية والتي يستحيل الوصول اليها دون عبور «سرب» من الصور والألوان.

ولكل ما سلف ذكره، ارتأينا من الجوهري أن نتمهد الموضوع عبر دراسة عدد معين من

المسلمات واللازمات، والمواقف والاحاسيس، هادفين بهذا، التحصل على نواة الرغبة الاصلية نفسها، اذ أمكن ذلك .

كانت هذه الاصناف تنشد تفادي الصعوبات المتوقعة بسبب حساسية المواضيع المختلفة والمقاومات المحتملة، عند الاجابة ولكن، في الحقيقة، إن النتائج التي تحصلنا عليها فاقت بالكثير تلك التي كنا ننتظرها أو حتى نتمناها.
وهذا في حد ذاته، ذو مدلول

ونظرا لضخامة محتوى الاجوبة، لم نتطرق في هذا المقال، الا الى صنف منها اي : الجنسية من مراحل تطورية وحياة زوجية وكذا، علاقتها بالحمل والوسائل «المنعحملية».

وهذا، ليس فقط لأنها تتبين بعلاقة مباشرة كما يظن او يرى البعض وانما لأننا لم نتكلم عنها عادة، الا همسا وبصوت خافت وحتى الباحثين او العلماء منا، رغم تخصصنا ومهمتنا ومسؤولياتنا العلمية والتربوية والاجتماعية والاخلاقية. ونفضل تفادي هذا الميدان المحرم، ليس دينيا، لأنه «لاحياء في الدين» وإنما ذهنيا بسبب كبوتنا و مقاوماتنا وعقدنا القديمة والحديثة، واللعنة على من يتجرأ.

## ■إطار التحليل 1 : — الجنسية :

يحتوي المعنى العريض للجنسية على مجموع الطبائع الجسمية والفسلحية الخاصة بالذكور (الجنس الذكري) والاناث [ الجنس الانثوي ] ولكنها أيضا تناسل وتخلق، في المفرد وفي الجمع ولقد اردنا، في هذا الصنف، دراسة معاش هذه الجنسية، عند كل نفساءاستحوبناها، على المستوى الجسمي والنفسي والاجتماعي وعبرها ما يقصد الاخرون بها وفي تطرقنا الى هذا المجال، اخذنا بعين الاعتبار بان الجنسية، موضوع محرم على مستوى الكلام ـ والافعال طبعا ـ في فترة معينة، لأنه لم يكن الحال كذلك دائما، ونظرا لعدم وجود تربية جنسية حقيقية، افترضنا بأن المحيط يجبر، طوعا او كرها، على التكلم مع البنت، الحفيدة، الأخت . . . فقط، عند حدوث بعض الظواهر الفيزيولوجية وبلأخص علامات البلوغ كنماء الثدي او اول طمث عند الفتاة ـ ولا داعي للاشارة بأن مشكل الفتى يكون اكثر تعقد ـ وحاولنا ـ عبر دراسة بروز هذه المعطيات في حياتهن، تحليل معرفتهن الجنسية والتصورات المتعلقة بها والمعلومات المكتسبة في الطفولة، المراهقة وسن الرشد.

**الاعلام الجنسي عبر نقطتين :**

● **التخلف الجنسي الفسلجي :**

بحثنا عن الصدى النفسي والاجتماعي لظاهرة فيزيولوجية : اي حدوث اول طمث عبر فحص عدة نقط مثل الاعلام ومنبعه بالأسئلة التالية :

— «في اي عمر، جاءتك العادة الشهرية؟»

— «هل كنت تعلمين ما تحتوي عليه ومن شرح لك ذلك ؟»

وكنا ننشد الى التطلع على التصورات الناتجة عن هذا الوضع الجديد ومنها نوعية التباين الجنسي بين الولد والبنت وبالاحرى وأن تغيرات اجتماعية تطرأ حينذاك وبالأخص الضغوط الجديدة التي تتبع او تصاحب هذا التغير البلوغي ـ الاحيائي ومنها تقليص الحيز بالنسبة للبنت

● **التخلق الجنسي الاجتماعي :**

وبشكل مواز الى ماسلف، كنا ننتظر من خلال اقوال المعنية بالامر ان تموضع تاريخيا، توعيتها بالفرق بين الولد والبنت :

«في أي فترة من حياتك، او ظرف، رأيت بأن هناك فرقا، اي ان البنت بنت والولد ولد؟»

وكنا نبحث عبر هذا وبالاخص على إلمام الوضع النظامي الضمني او الجلي لهذا وذاك والذي يكـون قد رسخ في ذهنها من طرف الجماعة وعلى مختلف المستويات : الولادة (أخ أو أخت)، المدرسة، شغل البيت، السوق، العمل، الحقوق والوجبات و ما الى ذلك

وللتنبيه، بودنـا أن نضيف بأنـه، رغم وضـوح وتحديد مصطلح «التخلق الجنسي» في علم الأحياء، على مستوى الصبغيات والخلايا الجنسية، الاعضاء والافراد، فموضعناه هنا، فقط على المستوى المذكور سالفا، كما اردنا الالحاح على أصل كلمة «الجنس» باللغة الفرنسية والمشتقة من الفعل اللتينيA«SECARE أي فرّق ولكن تجاوزت هذه المعنى حاويها واتسعت محتوياتها الى تمييز جنسي وعزل وانطلق التفريق من فرق فيزيولوجي، شاملا كل المجالات وبالرغم من أن الله عزّ وجلّ خلق جسمين مختلفين من نفس واحدة

**الـزواج و الجنسيـة**

● **ليلـة العـرس :**

وبدراسة تاريخ الزواج (تقيلدي او«عصري») وليلة العرس وخاصة وانها تعتبر، تجريديا، اول

مواجهة مع الاتصال الجنسي ـ على الاقل بالنسبة للمجتمع ـ أردنا تقييم ماذا يتم تحريضه عند التحضير الى الحادث ـ أم لا ـ معاشه والتصورات المتناظرة بالنسبة للانجاب او عدمها.

ومن جهة اخرى، كان من المثير للاهتمام أن نتحقق مما نعرفه ـ نتيجة انتمائنا الاجتماعي ـ أي أن تحضير وتكوين الفتاة لوظيفتها كمرأة وكشريكة جنسية ومنجبة يكون شبه معدوما ونحن نصرف النظر عن قصد، عن الغسيل والكي والطبخ وما إلى ذلك لأنها ليست بمواد كافية لبناء أسرة «تربية غامضة»، حيث الى ذلك الحين، يكون الجنس منخفض القيمة والاهمية، محرما وممنوعا حتى على مستوى الكلام، مخزيا وغير مشروعا حتى التساؤلات الطفولية، البريئة، ثم فجأة وبدون أي تمهيد [التحسيس، الاعلام و لو من طرف الام]، تجعل بنت صغيرة، بما أنها غير ناضجة في هذا الميدان، في فراش رجل بدون أي تجهيز سوى الجمالي. ولاحاجة أن نشير بأن الشاب هو الآخر يتصف بنفس الميزة أي عدم النضج، ولا يستطيع مساعدتها. وكنا نأمل من هذه العناصر، أن تسمح لنا بإحاطة إلمام «الرغبة في الطفل»، حيث المعرفة تتساوى مع التوعية والادراك والارادة وكان السؤال : «هل فكرّت، ليلة عرسك وفي «تلك» اللحظة بالذات في احتمال حمل؟»

## ● الحياة الجنسية أو الزواجية

عبر هذه الزاوية، وبحصر معناها أي : التواتر والطلب والعلاقات الجنسية عادة، واثر الحمل، الرضاعة، أردنا الوصول الى التصور الخاص بقصدية الجنسية الأنثوية عبر المرأة نفسها، تعبيرها و معاشها لها وكان الهدف المنشود من هذا، إثبات أو إلغاء المعادلة :

جنسية = إنجاب

ولكن من جهة اخرى وبغض النظر عن أي رغبة في الطفل، في الانجاب أو في الأمومة، بيّنت المزاولة بأنه من الممكن جدا، أن يستعمل الحمل كوسيلة دفاعية، نوع من الحماية ضد ممارسة جنسية لا تطاق، لسبب أو آخر . وفي هذه الحالة، ترحب المرأة بكل المنافذ الممكنة : حمل صعب، إرهاق جسمي، أعباء البيت، عائلة وافرة... منافذ، حقيقية أو خيالية ولكن أيضا بعض الأوضاع الأخرى والتي تستغل بسهولة : المرأة «الثقيلة»، « النافس قبرها يبقى مفتوحا اربعين يوما» وبالتالي . . . ، المرأة المرضعة : التغذية الحسنة، الراحة، الهدوء . . . ولم تكتف هذه الاوضاع برفع قيمتها في الوسط الاجتماعي الذي يبذل جهودا لا تقدَّر للاحتفاظ عليها، وإنما ستسمح لها، أيضا بالتقاعس عن واجباتها الزوجية، ازليا، والعائلية، دون ملامة، إذا رغبت في ذلك.

## ● النتائج : تحليل و تركيب

سمح لنا تحليل محتوى المحادثات، بإحصاء مواقف وتصرفات، وحالات نفسية ـ او عدمها ـ متنوعة ومتغيرة حسب السياق والاونة، في حياة كل إمرأة وايضا إثر الاستجواب نفسه

وما نستطيع قوله هو انه قد تحصلنا على اجوبة تتطابق مع إفتراضاتنا السالفة وفرضيات بحثنا

ولكنها كانت اكثر جسامة مما توقعناه ولهذا، لم نر الا البعض منها

● التخلق الجنسي الفسلجي : أول طمث

مهما كانت نوعية رد الفعل الملحوظ : خجل، بكاء، فرح . . . إن الصلة مع الام ثابة :

— «كان جد صعبا . . . لأنني أخجل من امي».
— «شعرت بذعر . . . لأن أمي . . .» : وقارنت هذه المفحوصة امها بإحدى الابطال من «الوحوش» في حكايات الاطفال المرعبة والذي كان يتزوج ثم يقتل زوجته في ليلة عرسهما، إن لم تخنا ذاكرتنا اي barbe-bleue
— «بدأت ارتعش عندما قلته لأمي»
— «أخفيته على امي لانني ظننت انها تجهل ما هي هذه الظاهرة»

● التخلق الجنسي الاجتماعي

لم نر احسن من هاتين الاجابتين عن الوعي بالفرق، بين الولد والبنت وخاصة الظروف التي حدث فيها

— «عند الولادة، إذا كان ولدا، نسمع الزغاريد وإذا كانت بنتا، السكوت التام ويقال عن امها : مسكينة». بدون تعليق
— «عند الاخيار، يواصل الولد دراسته بينما البنت تمكث في المنزل للانتظار . . .»

● جنسية و زواج

وفي هذه الزاوية، ايضا، هناك إجابة واحدة تظهر لنا ذات مغزى بليغة وتمثيلية للحياة الجنسية لأغلبية النساء المستجوبات

— «هل كنت تعلمين ماذا سيحدث تلك الليلة؟»
— «نعم، قالت لي خالتي ما كان يجب أن افعل»
— «وما كان عليك ان تفعلي؟»
— «ان لا افعل شيئا . . . ان لا أقاوم . . .»

كما اننا احصينا اقصى تواترا فيما يخص الطلب الجنسي من طرف واحد، عند الزوج. وبغض النظر على ان هذه الاجوبة صادقة، لقد اخذنا بعين الاعتبار الاحتشام والتحفظ المرتبط بهذه النقطة بالذات وخاصة واننا نعلم بأن المجتمع لا يسمح للمرأة ان يكون لها او تعلن عن هذه الرغبة او على هذا الطلب وإلا سيساء الظن اليها. ولا حرج أن نذكر بأن، في الاسلام، رغم أن

الطلاق مكروه، فمن الحجج المقبولة لطلبه، هناك عدم التفاهم او الاشباع الجنسي. وإذا اباح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالعزل كوسيلة للتثقيل (الحمل) لم يسمح ان تطيل مدته اكثر من ثلاثة اشهر حتى لغرض العبادة.

ومع هذا، فمن الممكن ان نسجل طلبا ملحا، عندما يتدخل عنصر اكثر اهمية من الحشمة اللازمة، ويمثل هذا، حتى في ايامنا هذه، قضية حياة او موت، وتقول احدى المفحوصات :

«لقد عانينا صعوبات، لم يستطع زوجي إتمام الاتصال. . . كان مرهقا. . . ولكنني كنت مصرّة على أن نفض الامر في تلك الليلة وبدون أي تأخر. . . لقد تعاشرنا قبل الزواج (كانت تخرج معه للفسحة، الى المطعم. . .) وخشيت ان يرتاب في امرنا. . .»

وخارج هذا الغيض من الفيض، لزواج «عصري» في مجتمع تقليدي ذهنيا، يبقى القماش الملوّث بالدم، مستحقا للاداء في ليلة العرس وبلا مهلة أو تأخير، أي بوجود كل المدعوين (13)، قريبا وغريبا، حبيبا وعدوا: إنه دليل الطهارة بالنسبة للفتاة عبر شق عذرتها (الدم) (14) وشهادة ملموسة لرجولة الفتى عبر الافتراع الحيني، ولا داعي ان نتكلم عن شرف الجماعتين، العائلتين بفضل هذا وذاك.

وهذا المعنى المزدوج (للقماش) ـ او حتى المثلث ـ برمزيته، يجعلهما للمرة الاولى والوحيدة، في حياتهما، متساويي الحقوق والواجبات، في وضعية مفرطة القلق أمام التحريض المتزايد لدى جماعة :

«إن إضفاء القيمة المفرط والشبه ـ روحاني الذي يحيط بمشكل عذرة الفتاة والعادات المرصودة لاثبات وبرهنة هذه العذرة للآخر ليلة الزواج، كأهمية الحمل وعدد الولادات، يجب ان تقرب بوجه خاص، اسنادا للرمزية التي تعكس الختانة. إن ضرورة الجرح والدم ترمز عن إشكالية الرجل وتعزز إنخفاض القيمة لمكانة المرأة»(15).

وانه من المثير للاهتمام ان نسجل بان المعاني الثانوية للفعل الفرنسي الذي يستعمل للتعبير عن فض البكارة او déflorer تحتوي على الكسر، والقوة والعنف بينما معناه المعجمي هو قطف زهرة، بكل ما يتضمنه هذا من ود ورقة ولطف. وهكذا، فكل واحد من هذين الاتجاهين، إما سيؤدي الى حياة منسجمة ومتوازنة وإما سينجر عنه حياة جنسية وزواجية لا تطاق، وينجم عن هذه الوضعية اضطرابات خطيرة ناتجة عن صراع نفسي عميق، من ابسط تظاهراته كسوء التفاهم وخلافات لا نهاية لها أو تتفاقم الأحوال الى أقصى حد كالضعف الجنسي (16) بالنسبة للرجل (17) او ألم الجماع (18) والانقباض المهبلي (19) بالنسبة للمرأة. وهذه ليست «بخرافات» وإنما حقيقة تأكدت إثر مزاولتنا بتواتر يلفت الانتباه. ونتذكر هؤلاء الازواج الذين اتوا لطلب المساعدة، بعد إجبارهم من طرف المجتمع الذي لم يفهم عدم الانجاب بعد عدة أشهر أو حتى أكثر من سنة من الزواج أو من طرف الطبيب الذي يوجههم نحونا لعدم وجود اي سبب عضوي لاصابتهما

ونادرا ما يطرح المشكل في محوره الجنسي (الحشمة، العيب) وإنما إلا عند المهاجمة المستمرة من طرف المحيط بتساؤلاته حول الانجاب والاتهامات بالعقم الموجهة للمرأة من عائلة الزوج والزوج

من عائلة المرأة وهذا ما يفاقم أكثر الوضعية المعقدة لأنه يستحيل ان بثا بسرهما، سواء كان من مسؤولية المرأة او «مسؤولية» الرجل

ونستطيع ان نقول بأن نتائج العلاج كانت في معظمها إيجابية. وإذ لم يعد هؤلاء الى فحصنا لاطلاعنا عن تحسن التهاب (الاستشمام) فلقد كافانا ان نراهما من بعيد، منتظرين امام باب الطبيب، لتتبع مجرى الحمل.

● الجنسيـة و الحمـل :

كانت دراسة ردود الفعل المسجلة عند ملاحظة الحمل الأول، عبر أول علامة عنه أي إنقطاع الطمث، تنشد الى البحث عن الرغبة نفسها، طبيعتها وسياقها وكذا أصلها وبعض المميزات التي كان في امكانها أن توضح لنا أكثر، هذه النقطة

كانت متعددة، مثلما توقعناه في إطار التحليل ولكننا لم نر هنا إلا إحداها اي اللامبالاة ونعني بهذا عدم وجود أي رد فعل مهما كان ، سلبيا أو إيجابيا، عند إدراك الحمل بالنسبة للمرأة، زوجها او محيطهما:

«لم أفكر أبدا في «هذا». . . كنت أظن أنه لم يحن الأوان. . . لقد قالته حماتي للأخرين وكنت حاضرة. . . لم اركس. . . وحتى زوجي»

كأن اللامبلاة هذه تعكس عدم التحضير وعدم الخبرة لدى الزوجين، نسبة الى سنهما عند زواجهما : أربع عشر سنة بالنسبة لها وعشرون سنة بالنسبة له، ويمكن شرح عدم الرغبة في الانجاب او بالأصح ، عدم التفكير فيه، بما انهما كانا يعتبران انفسهما اطفالا. ويصل الحد إلى عدم الشعور بأي إحساس إزاء البكر عند ولادته وبعدها.

«لم أشعر بأنني أصبحت اما. . . كنت أنا نفسي طفلة صغيرة. . . وحتى آلان، أرى بكري كأنه غريب عني. . .»

ورغم أن حماتها هي التي أعلنت عن الخبر (بعد ملاحظتها لأول إشارة خارجية أي الاستفراغ الصباحي) لاحظت المعنية بالامر نوعا من اللامبالاة من طرف عائلة زوجها ولكن إحساسا بالفرح عند أمها، ومن الممكن ان يفسر هذا الابتهاج عند الأم، نسبة الى سياقنا الاجتماعي - الثقافي بحيث ان قلق الأم إزاء ابنتها يعبر عدة مراحل ولا تستطيع تجاوزه أو التسلط عليه إلا بمرور الزمن :

— الخوف من ان لا تتزوج.

— الرهاب من أن لا تكون عذراء عند زواجها أو أن لا يبرهن عن ذلك (القمجة) لسبب أو لأخر.

— والهجاس من ان لا تكون نثورا

ولم تعتبر الام التقليدية، بأنها قد ادت رسالتها الا بعد تحقيق مهمتها الاولى والثانية وإنطلاق الثالثة بدون توقف حتى القعود والتقاعد

ونظن بأن هذه العناصر هي التي توضح فرحة الام رغم سن ابنتها

******

إن الانسان، بطبيعته، كائن ثقافي رغم أن الطبيعة والثقافة يعتبران متناقضين. ولكن ما تبديه الملاحظة هو تسلط الافعال الثقافية على الأفعال الطبيعية، تسلط أكثر من تفاعل ينطلق من الولادة وحتى منذ الانجاب، و هذا رغم التطور العلمي الرائع في هذا المجال (الطبيعة)

لقد تطعّم تخلق اجتماعي على تخلق جنسي : وراثياتي مضغي و فيزيولوجي، ولا يستطيع أحد اكتشاف أصله في تاريخ البشرية وهكذا، أصبحت الاحصائية قدر المرأة وكل الباقي من نصيب الرجل.

وعلى سبيل المثال، لقد سمح تطور علم الوراثية باكتشاف الصبغيات الجنسية، وتبرئة المرأة من المسؤولية في جنس الطفل (اي ولد أو بنت)، ولكن رغم هذا، لازالت بعض المشاهد الى حد أيامنا هذه، متواترة ومنها، تلك العائلات ذات عشر أو إحدى عشرة بنتا أو أكثر والباحثة عن الولد الذي سيعطي للأم الهوية التي تحلم بها اي «أم فلان» كما هو الحال في البلدان العربية الشرقية، وللاب خلود إسمه وبرهان رجولته «الرّجال يجيبو لا الرجال، والنساء يجيبو النساء».

وفي المصلحة واذا حدث وقلنا لتلك الأمهات بأن تحديد الجنس من خاصية الرجل وأنه مبرهن عليه علميا، لا تصدّقننا رغم احترامها لنا و ايمانها بالله والقدرية إذ لا يمنعها هذا ان تحاول ثانية وثالثة . . حتى الحصول على الكنز ـ الولد أو القعود أو حتى في بعض الاحيان، إعادة ـ الزواج من طرف الزوج لهذه الحجة.

ولابأس ان نذكر ما حدث لنا عند تسجيل حصة تلفزية«منكم واليكم»، وهذا المثل دليل عن المقاومة الشديدة ـ ولو كانت لا ـ إرادية ـ في هذا المجال حتى عند المسؤولين عن إنجاح هذه السياسة على مستوى الاعلام. وكانت تحتوي هذه الحصة على دائرة مستديرة حول مشاكل التنظيم العائلي من حقوق و واجبات. ولقد طرح حينذاك، نفس التساؤل، والخاص بتعدد البنات للحصول على الولد، وقد أجاب المدعوون علميا ـ اي الاكتشاف السالف الذكر ـ و دينيا، وخاصة وان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يدعى بأب البنات ويفضلهن عن الاولاد، زيادة عن الاعتقاد المفروض لدى المؤمنين والمؤمنات بقدرة و مشيئة الله

ومع هذا، ورغم خبرتنا وتوقعنا للكبح في هذا المجال، لقد اندهشنا عند بث الحصة، لما لم نتصوره أبدا أي ان خلية المراقبة قد حذفت تماما أجوبتنا واحتفظت بالسؤال الاصلي مثلما كان ولقد سمح التركيب التقني بأن يفهمه الجمهور كأنه تبرير لتعدد المواليد مما سبب قلقا وحيرة عند الكثير وجرّ العديد من الانتقادات ضدنا.

من جهة اخرى، وبعد اكتشاف الفترة المخصبة والفترة العقيمة ـ ونشير هنا الى الاباضة ـ كان يجب أن يتأكد الجميع بان الله سبحانه وتعالى ـ والطبيعة ـ قد برمج اللذة الجنسية عند المرأة بمعزل عن قصدية الانسال ولكن رغم هذا . . . وموقف الاسلام هنا واضح ، وجلي ولقد فسره فيما فيه الكفاية عبد الوهاب بوذيبى في كتابه «الجنسية والإسلام»

وهكذا ورغم انفتاح آفاق جديدة بفضل مجموع هذه الاكتشافات والتي سمحت بالتمييز بين ميادين كانت الى ذلك الحين، مختلطة كالجنسية والتناسل، الامومة والانوثة، والانوثة وتعدد المواليد . . . مازلنا نلاحظ تجاذبا وجدانيا ومعضلة تحتوي على حدين حرية ـ قلق، والتي يعاني منها الرجل كالمرأة.

فمن وجهة نظره هو، لم يقتنع بهذه الحرية المجانية ويخشى ان يفقدها لصالح الآخر، اما فيما يخصها هي ، فانها تهلع من الثمن الذي يجب ان تدفعه مقابل هذه الحرية، خائفة على ومن «مصير مصيرها»، اذا صح التعبير وهكذا «يلعب الرجل دوره كرجل، خشية ان يماثل بمرأة، بينما تؤدي المرأة دورها كمرأة خوفا من ان تشابه بلاشي ء»(16).

اذا، لم تغير هذه الاكتشافات العلمية الكثير في استغلال الطبيعة، ولكنها سمحت، على الاقل، بإظهار الجوانب الثقافية (النظريات اللاهوتية والاديولوجيات الظاهرة او الكامنة) والجوانب الاجتماعية الثقافية (كهياكل السلطة والسهولة الاقتصادية لتقسيم العمل بين الجنسين) والتي كانت، الى ذلك الحين، تضم الوضع الانثوي، وكانت القصديات الساحقة لدى «الطبيعة» تقنعها.

وينتج عن التحليل بأنه لمن الأيسر أن نغير أفعال الطبيعة أكثر من افعال الثقافة وتحدس مفارقة هذه الملاحظة في ضخامة البذل والصعوبات التي ستصادفنا، بالتأكيد، عند تنفيذ سياسة لتباعد الولادات وإنجاحها.

ونظرا للامنية النبيلة لتأسيس سياسة صحة (جسمية وعقلية) تأخذ بعين الاعتبار الفرد والجماعة العائلية، هناك تساؤلات مهمة تتجلى ولاسيما، سؤال اساسي، على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع والدولة:

ماهي المكانة، التي نتمنى ان نراها محتلة من طرف المرأة، كمرأة وزوجة وامّ و/او مواطنة ؟

وبالتالي، كيف يمكن استثمار الجهود المشروع فيها في مجال التربية لنرجع ملائما ومنسجما كل زوج (ة)وكل جزائري (ة) امام مسألة الطفل المرغوب فيه، اي إعادة صيغة الرغبة في الطفل تجاه الذات وتجاه المجتمع ؟

ولذا، يجب على النشاط ان يتسع بفضل تربية إجتماعية واستعمال جميع الوسائل الاعلامية والتكوينية وخاصة وانه، الى حد الآن، علّمنا ولم نرب.

ففي المدارس، من الممكن ان تدرج التربية الجنسية في إحدى الوحدات الموجودة كالتربية الاسلامية، او الاجتماعية او دراسة الوسط او الثلاثة معا وخاصة انها تُمثل ثلاثة محاور للمشكل. ولاحرج في ذلك، لأن التربية الجنسية لا تتلخص فقط، كما يظن محاربوها، في إرشادات كيفية الاتصال الجنسي وإنما هي تكوين فردي إجتماعي وإنساني والهدف الاساسي منها، هو احترام الآخر، «المختلف».

وهذا ما يسمح بتربية الطفل ، تربية جيدة صحيحة، احسن من المعلومات الخاطئة التي يتلقاها في الشوارع وزاوياتها، عندما تجتاح ذهنه تساؤلات سنه، في مراحله المختلفة.

وليست مدارس الاطفال كافية بل المجتمع في حاجة الى مدارس اولياء، ولمن يلعب دور بديلهم، ايضا وسيكون الهم الوحيد لهذه المدارس، تقديم تكوين جديد للمكونين أنفسهم وتوجيهات جديدة في تمهيد الطفل وبالأحرى احترامه كفرد له شخصيته وامتيازاته وليس موضوعا او مادة وهذا ما يرسي قواعد وأسس مجتمع أقل إندغاما (تشنجا) وأكثر توازنا وإزدهارا.

تربية الأزواج ولكن أيضا تقسيم تربية الأطفال بالتساوي بين الأب والأم، في فائدتهما كأزواج وكأفراد ولكن أيضا وبالأخص في فائدة الطفل :

«إن الرجل يعبر الأبوة، بينما توقف المرأة في الامومة، وتحتجز إجتماعيا فيما كان في يوم من الايام رغبتهما، بينما يخرج منها الرجل سالما»(17).

حقيقة، ومهما كان الدين او الجهاز السياسي او الاديولوجي أو نوع المجتمع ـ تقليديا او عصريا، ريفيا او مدنيا ـ يكون مستقبل المرأة مضمونا، دائما، إلى مستقبل الطفل ـ أو العكس ـ ولكن بضرورة التقسيم في المسؤولية الحقيقية والتي ليست بميزانية فحسب وتحقيقها الفعلي، ستفتح أبعاد جديدة مثرية في ميادين عديدة. وبالنسبة لجميع المعنيين بالأمر في الحليّة العائلية وكذا المجتمع.

لم تبق الام الموضوع الوحيد للتقمص اي المرجع الوحيد بالنسبة للطفل بنتا او ولدا وبفضل هذا، لم يبق الطفل موضوع ابتزاز إثر صراع او طلاق بين الزوجين

وأخيرا، تمنح المرأة إمكانيات تسامى أخرى غير الانجاب مما يشجعها على بحث وسائل أخرى للتحقيق الذاتي وتباعد الولادات وخاصة وأن الرغبة في الطفل تعتبر المرحلة الابتدائية للاعلاء.

وفي النهاية، يتحول مبرر الوجود الى مبررات للحياة.

ومن هذا المنطلق، ان السن الراشد الأصيل للزوجين «سيعني بأن الأطفال، واحد فواحد، قد، رغب فيهم سلفا، كممثلين رمزيين لسلالتين قد ازدوجتا عبر متناسلين متفقين في اتصال حب منجب»(18)

1) مثل الاستفراغات التي لايمكن حبسهاvo missments incoercibles de la grossesse
2) الذهان النّفاسي psychose puepérale
3) اي دراسة الظاهرة كما تبدو بصرف النظر عما وراءها من حقائق
4) اي ان معيار صدق الافكار والآراء في قيمة عواقبها العلمية، فالحقيقة تعرّف □بنجاحها○ الملموس
5) centrs de protection matemrnelle et infantle .p.m.i
6) ونلاحظ هنا الاحتراس من طرف مسؤولي هذه السياسة
7) الطارئة grossesses ou naissanes par accident
8) إزالة الوظيفة التناسلية نهائيا بفضل عملية جراحية دون المساس بالقدرة الجنسية
9) مدة الحمل : Gestation
10) trace mnésvaque
11) بوسبسي (م) تعدد المواليد والتحولات الاجتماعية الثقافية
11) خروس : بكرية الولادةprimipare عكس ولود اي multiple
12) م بوسسي و س زابدي : الصحة العقلية والوسائل المنعية للحمل 1982
13) نفس المرجع
14) activete passivité
15) الجمهور الضروري لكل مسرحية
16) ثبتت دراسات علمية، بان مرأة من بين ثلاثة، لا تملك الزفاف (اي غشاء المهبل) hymen خلقيا، اي تلد من غيره فما يكون مصيرها، في الوقت الموعود
17) م بوسبسي : تعدد المواليد، و التحوّلات الاجتماعية الثقافية و النفس مرضية
18) العجز عن ممارسة الجماع وهو في الاغلب يكون لأسباب نفسية ويمكن شفاؤه بالعلاج المناسب وخلق حوار بين الزوجين ، لتوعيهما بالصراع الكامن يكفي وخاصة و إن كان الزواج عن حب